الفصل الثاني : الدموي

كان يجلس على المقعد الأمامي لسيارة الديلاهاي Delahaye بالقرب من السائق. لم يكن ذلك بالتأكيد مقرراً في نظام التشريفات (البروتوكول) وذهل الضباط حين رأوه في مطار الرباط ـ سالة، مرتدياً البدلة الحمراء المخصصة للحرس الأسود (جلباب، سروال، شاشية) لأنه لم يكن أبداً قبل ذلك من عناصر هذا الحرس. ربما هي الحاجة للاستعراض بالألوان المحلية على الأغلب، بعد أن كان قد ارتدى خلال خمسة عشر عاماً البدلة العسكرية الفرنسية وعمل كمعاون عسكري (أي رجل الثقة) لأربعة مفوضين ساميين. كان حتى تلك الساعة ما زال يعمل في مكتب آخرهم وهو لويس أندريه دوبوا Louis-André Dubois المعين منذ أيام فقط. في السابق، كان المعاون العسكري الموثوق للجنرال دوفال Duval الذي كان يقول عن المغاربة : «أفضل قتل ألف منهم الآن على أن أكون مجبراً على قتل ثلاث مئة ألف في حرب مستقبلية». بعد أحداث وادي الزم الدامية في 20 أغسطس 1955، أمر دوفال هذا نفسه الفرقة الأجنبية بذبح أكثر من ألف مغربي. كان رجلاً يفعل ما يقول، ثم مات بحادث طائرة ليس من المستبعد أن يكون للمقاومة علاقة فيه.

ها هو إذن أوفقير يجلس على بعد بضعة سنتمترات من السلطان الذي ينصب عليه هيام شعب بأكمله. لم يفرض نفسه، بل عرف كيف يكون رجل الموقف. كان الخوف من هجوم أو استفزاز محتمل يستولي على الضباط. لاحظ السلطان حالتهم العصبية هذه منذ خروجه من الطائرة ولم يكن يستطيع، بطبيعته المعروفة، عدم التأثر بتلك الحالة. أتى أحد عناصر الشرطة بمسدسين في قفة لسائق الديلاهاي فانتزعهما أوفقير بحركة سلطوية ووضعهما في حزامه ثم جلس في السيارة مطمئناً سيدي محمد أنه بوجوده إلى جانبه لن يتعرض لأي خطر. وفي ختام هذه الرحلة صار أوفقير المعاون العسكري للسلطان، أي رجل الثقة.

ولد حوالي سنة 1920 في التافيلالت Tafilalt، على مشارف الصحراء، وهو الإبن الثاني لحاكم صغير على بلدة عين شيخ البائسة، حارب والده ليوتي Lyautey ثم ما لبث أن تحالف معه وقضى شيخوخته بالقرب من زوجتيه متأسفاً على الأزمنة الماضية حين كان يعترض سبيل القوافل الآتية من الجنوب على رأس زمرته. يروي كلود كليمان Claude Clément، كاتب سيرة أوفقير وهو ضابط فرنسي سابق في المغرب، أن والده هو الذي علمه فنون التعذيب الناجحة التي كان يستعملها لجعل أفراد القافلة يعترفون بأماكن تخبئتهم للذهب. ومن هذه الفنون على سبيل المثال: وخز جذع المنكل به برأس الخنجر دون غرزه، ويبدو أن نجاح العملية يتوقف على سرعة وتعدد الوخزات بشكل يصبح فيه الشعور بالاختناق لا يحتمل بتاتاً.

حين كان عمره خمسة عشر عاماً أرسله ضابط الشؤون المحلية إلى ثانوية أزرو التي أنشأتها فرنسا لتخريج

كوادر متوسطة ومخلصة على نمط النموذج البربري المثالي. كانت الدراسة تدوم ثلاث سنوات يتخرج على أثرها الطلاب بشهادة تكميلية (بروفيه) تؤهلهم للعمل في مجال التدريس أو السكرتاريا داخل مكاتب الشؤون المحلية.

كان أوفقير لامعاً وبشكل خاص في النشاطات الجسدية، بنى علاقة صداقة مع زميل له قادم من الريف هو خياري بوكرين. قطعوا سوياً درباً طويلة حتى عامود الإعدام الذي ربط عليه بوكرين وأعدم بالرصاص تحت أنظار صديقه القديم.

أتاحت لأوفقير نتائجه المدرسية الجيدة الدخول إلى الكلية العسكرية في الدار البيضاء رغم أنها كانت حكراً على أبناء الذوات. وصل هناك في 1 ديجمبر 1939 وقد مضى ثلاثة أشهر على بدء الحرب العالمية الثانية فانتقلت الكلية إلى القلعة التي شيدها بالقرب من مكناس مولاي إسماعيل، وهذا السلطان هو من أعظم سلاطين العلويين، هو نفسه الذي طلب الزواج من إحدى بنات لويس الرابع عشر (من عشيقته لافاليير La Vallière) وأجيب على طلبه بالرفض. تخرج أوفقير ملازماً في يوليو 1941 فعين في الفيلق الرابع للمناوشين المغاربة المتمركز في تازة. هناك بنى صداقة مع الملازم الأول حمو الذي سيتم إعدامه يوماً كما بوكرين ، أمام عينيه.

في الدار البيضاء، تابع أخبار الجيش الفرنسي المتعرض للهزيمة على يد الفارماخت Wehermacht (الجيش الألماني)، وبعد الإنزال الأمريكي في إفريقيا الشمالية تابع من تازة أخبار المشادات المقلقة بين جماعات كل من بيتان Pétain وجيرو Giraud وديغول وليس من المعروف مدى تأثير هذه الأخبار عليه.

نزل في ايطاليا مع الحملة العسكرية التي قادها جوان Juin وشارك في معركة بلفيدير Belvédère في جبال الأبروز Abruzzes. في الربيع كان مع القوات على نهر غاريغليانو Garigliano. كان جوان يطمح، في هذه المعركة، إلى تحقيق ما عجزت عنه الفرق الإنكليزية ـ الأمريكية طوال أشهر عديدة وهو: اقتحام خط الدفاع المسمى غوستاف Gustav والمعزز جيداً، ثم القضاء على حاجز مونتي كاسينو Monte Cassino من أجل فتح طريق الاستيلاء على روما.

أما فرقة أوفقير فكان عليها اقتحام جبل سيراسولا Cerasola وكانت مهمة شعبته التقدم عبر سفح صخري صعب الاجتياز، باتجاه المعاقل الألمانية.

بدأ الهجوم حوالي منتصف الليل دون التمهيد له بالقصف المدفعي، فوقع المهاجمون بسرعة في شرك من الألغام المزروعة بين الصخور وعلى كل المعابر. رغم ذلك استطاع أوفقير وبعض الناجين من الألغام الوصول إلى معاقل الألمان فوقعوا هذه المرة تحت مرمى نيرانهم المباشرة. سقط أحد الجنود بالقرب من أوفقير أما هو فقد أصابته

حروق بالغة في يديه ووجهه وعينيه. فشل الهجوم وانسحب الفيلق الرابع. في اليوم التالي، أرسل جوان فرقه من جديد، وعاود أوفقير الهجوم مع الناجين من فيلقه رافضاً التراجع رغم الضماد على عينه اليسرى وعلى يديه. نجح الهجوم هذه المرة.

حصل على وسام الحرب، وعند الدخول إلى روما، تم اختياره لحمل العلم الفرنسي على رأس الطابور. بعد مرور شهر قام الألمان بهجوم معاكس على الفيلق الرابع خلف أسوار مدينة سيينا Sienne الإيطالية. انفجرت قذيفة بالقرب من أوفقير سببت له هذه المرة جروحاً بالغة في ذراعه اليمنى. غادر إيطاليا حاملاً وسام الشرف والنجمة الفضية الأمريكية (سيلفر ستار silver star) وسعفة جديدة على وسام الحرب كما حصل على ترقية إلى رتبة ملازم أول.

بعد أن قضى سنتين في تازة، رحل إلى الهند الصينية مع كتيبة المشاة في الفيلق الرابع، هناك اشتهر أوفقير وذاع صيته: شجاعة تامة وإجرام لا حدود له. كان مسؤولوه يقولون عنه: «بالمقارنة مع أوفقير، يصبح المظليون ملائكة». وكانت سمعته تتغذى يوماً بعد يوم بتلك الإنجازات التي تصنع منها عادة أسطورة المقاتل الذهبية. في أحد الأمسية، عاد الجنود من إحدى العمليات وكان جندي قد تخلف عنهم، فذهب أوفقير في نفس الليلة مع إثنين من العناصر وعاد حاملاً على ظهره الجندي الجريح. في صباح يوم آخر، كان عائداً من إجازة في سايغون وهو يرتدي بدلة الخروج البيضاء فرمى بنفسه في اللحظة الأخيرة في إحدى الشاحنات التي كانت تقل عناصر كتيبة لنجدة مجموعة من السنغاليين المحاصرين أثناء هذه الحملة التي استمرت يوماً وليلة، قاد أوفقير رجاله وهو باللباس الرسمي (البدلة البيضاء) على طريقة بورنازيل Bournazel.

إلى جانب إنجازاته هذه، تضاف عملية تصفية قائد كاودائي رفض الرضوخ للسلطات الفرنسية وانسحب إلى إحدى الغابات محاطاً بحراسة مشددة ومتحدياً قيادة الجيش الفرنسي. اختار أوفقير مجموعة من الكاودائيين المتعاونين وخمسة عناصر من فرقته، دخل بهم إلى الغابة. وضع حيلة كان على الكاودائيين بموجبها أن يذهبوا إلى القائد وأن يقدموا له العناصر المغاربة على أساس أنهم أسرى فارين ونجحت الحيلة فما أن وصل الأسرى أمام القائد حتى سحبوا من بين أفخاذهم القنابل المخبأة وقضوا عليه مع أعوانه.

ومن بطولاته أيضاً أنه كان مرة محاصراً مع فرقته وأوشكت ذخائرهم على النفاذ فرفعوا الأعلام البيضاء وتقدموا نحو الفيتناميين بعد أن نزع هؤلاء أقنعتهم وأشاروا لهم بالاقتراب. ما أن وصلوا على بعد خطوات من الخصم، وأوفقير على رأسهم حتى أخرجوا أسلحتهم المخبأة وانقضوا على المحاصرين فتمكنوا من الإفلات. كان الملازم أول أوفقير يعرف جيداً أن الحرب لا تشبه أبداً رسوم ايبينال Epinale.

عينه رؤساؤه، وقد ظنوا أن تافيلالت منطقته هي نهر، للعمل على الديناسو Dinassauts وهي البوارج التي تمخر الأنهار والقنوات. قاتل طوال أشهر على رأس وحدة أصبح لها بسرعة شهرة أسطورية بإسم الكوماندوس O (الحرف الأول من أوفقير) ثم الكامندوس 0 (صفر). مارست هذه الوحدة حرب الكمائن والسطو على طول آلاف الأنهر التي تشق دلتا ميكونغ Mékong عبر كثافة النباتات على ضفافها الموحلة. كان أوفقير يحب هذه الحرب التي تشبه الصيد وحيث غالباً ما تتحول المعارك فيها إلى تلاحم فردي بين الأخصام. عين بعد ذلك قائداً على قطاع في منطقة بيان ـ هوا Bien-Hoa، وعندما غادر الهند الصينية كان قد رقي إلى رتبة كابتن وأصبح ضابطاً في فرقة الشرف la légion d‘honneur كما ازدان وسام حربه بإحدى عشر سعفة.

الرجل الذي عاد إلى المغرب كان إنتاجاً استعمارياً خالصاً. ضابط نخبوي كان يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من الجيش الفرنسي ولم ينكر طوال حياته نعمة السنوات التي قضاها في صفوفه، كما لم يخطر بباله أبداً أنه لم يكن سوى مرتزق استخدم لمحاربة إرادة الاستقلال لشعب مضطهد كشعبه. حين كانت مجموعات المقاتلين الفيتناميين تهاجم وهي تصيح دوكلاب Doc-Lap أي (الاستقلال)، تلك الكلمة التي اكتسحت ديان بيان فو Diên Biên phu بعزم صيحات عشرات الآلاف من الرجال بها بصوت واحد، لم يكن أوفقير يرى أية علاقة لها «بالاستقلال» (حزب الاستقلال) وقد تأسس في بلده منذ خمس سنوات.

كان طويل القامة، ضعيفاً، ليناً، هاوي حروب ربما ؟ لكنه لا يشبه في شيء بيجار Bigeard، شقيقه في الشجاعة. بيجار في استراحاته مواطن فرنسي عادي، أما أوفقير فيثير القلق دائماً. تركت قاذفة اللهب الألمانية ثقوباً على خده الأيسر وكان يخفي تحت نظارات سوداء جراح عينيه. يشعر الناظر إليه بطموحاته الصعبة التحقيق والتي تبدو غير واضحة الأهداف. إنه طاقة لا يمكن معرفة اتجاهها، رجل خطير وصف جيل من الصحافيين بكامله دون كلل: «مشيته كالحيوانات الكاسرة ومظهره الجانبي الذي يشبه الطيور الجارحة». أما جان لاكوتور Jean la Couture، فقد تحرر، طبعاً، من هذه الكليشة وقال أن له: «وجه كقبائل السيو Sioux الهندية ونظرة سوداء كالقار».

لكنه رغم ذلك رجل مستعمر. لن تسمح له رتبة الكابتن ولا مجموعة أوسمته بقيادة سرية في المغرب. هكذا هو القانون، لا يسمح بتعيين ضابط من البلد المستعمر في منصب قيادي فالمناصب حكر على الفرنسيين بغض النظر عن رتبتهم في الخدمة. أثار أوفقير وزميله حمو فضيحة في مجلس الأركان في مكناس حيث كان القائد العام هو نفسه ضابط الشؤون المحلية الذي أرسل فيما مضى أوفقير الفتى إلى ثانوية أزرو. كان الجنرال دوفال، القائد العام للقوات في المغرب بحاجة إلى معاون عسكري، فتم اختيار أوفقير لهذه الوظيفة.

بقي ثلاث سنوات إلى جانب دوفال الذي كانت آخر مآثره قمع التظاهرات المنادية بالاستقلال في

قسنطينة الجزائر، في بحر من الدماء في مايو 1945. قدر عدد ضحايا هذا القمع بأربعين ألفاً. عرف دوفال بعناده وسرعة الانفعال، كان أوفقير يعجبه وكان هذا يحبه. لم تقف أبداً أية عقبات في وجه صداقتهما.

بدأ أوفقير حياة جديدة، بعد حياة الزهد في سنوات الطفولة والمعاملة الصارمة في ثانوية أزرو ومرحلة الشباب الاسبرطية القاسية في الدار البيضاء، بعد تشنجات حملة ايطاليا والحرب المتواصلة في قنوات الفيتنام، ها قد دخل أخيراً حياة الترف والمباهج: ولائم احتفالية في مقر المندوب السامي، حفلات استقبال، معاشرة الموظفين الكبار ورجال السياسة والسفراء، وأيضاً نساءهم اللواتي لم يتركنه يجهل أنه يثير إعجابهن بشخصيته الخطيرة والغريبة، بالتأكيد، وإنما أيضاً بجاذبيته، فقد كانت ابتساماته تضع بعض النور على وجهه الجليدي وكانت نظرة القار، التي تصدم كل مجالسيه عادة، تتفتح بعض الشيء. على العموم، لم يكن هذا الرجل سوداوياً بالكامل. كان يحب الحياة وحلقات البوكر حتى الفجر وارتياد الحانات الليلية. كان يحب أيضاً بنات الريف الفرنسي الساعيات إلى تكديس الذكريات الجميلة والبورجوازيات المتكلفات الباحثات عن مغامرة عابرة.

أما اختصاصه فكان في حقل الاستخبارات، أنشأ علاقات بكافة أجهزة الأمن الفرنسية لكنه كان يفضل جهاز التوثيق الخارجي ومكافحة الجاسوسية لأنه يتكون من الضباط بشكل خاص. لم يكن مجرد عميل بل عمل كعنصر نشط في حفظ الأمن الفرنسي على الأراضي المغربية. حين وصل جوان Juin إلى مقر المندوب السامي، والعصا في يده، لم ينزعج بتاتاً كان جوان قائده في ايطاليا وهذا فقط ما كان يهمه. خليفته غيوم Guillaume كان أيضاً قائد المناوشين المغاربة في بلفيدير Belvédère وعلى نهر الغاريغليانو Garigliano، فدعا أوفقير للعمل في مكتبه. حزن هذا الأخير لاضطراره ترك دوفال لكنه رضخ لطلب غيوم.

ها هو قد أصبح في مركز السلطة: مقر المندوب السامي. إن مهمة المعاون العسكري هي فتح كل الأبواب والسهر على حقيبة معلمه. كان الهدف من توظيفه في المقر توفير المعلومات لأنه كان يمتلك شبكة من المخبرين القادرين على إبلاغه دماً بما يدبر في أوساط الوطنيين، بعض هؤلاء المخبرين سلمهم له جهاز السيديك SDECE والدي.إس.تي (DST) والباقي جندهم بنفسه.

هذا هو بلا شك السبب الذي جعل خمسة مندوبين متوالين يحتفظون به في خدمتهم، الليبراليون منهم والقمعيون. بعد وفاته، مدحه العديد منهم في الصحف الفرنسية معربين عن أسفهم عليه إنما بعبارات مبهمة بالنسبة لقارئ مغربي، من نوع «كان صادقاً ومخلصاً»، مما يدفع إلى طرح السؤال: لمن كان إخلاصه؟

تابع عن قرب أحداث الدار البيضاء الدامية في دجمبر 1952 ولم يخف على مقربيه أنه وجد القمع رخواً بعض الشيء. كان يعتبر أن السياسة فن في غاية البساطة أي، باختصار، تحديد العدو ثم تصفيته. تشرب

في الهند الصينية الكره لرجال السياسة الفرنسيين بتأثير زملائه الضباط، ولم يراع في حقده هذا سياسيي بلاده، ثرثارون برمتهم حسب تعبيره. كان بسبب أصله الريفي يشمئز من أهل المدن الرعاع، لذا لم يكن يستاء من مقولات موظفي المقر من نوع: البلاد ما زالت تؤيد السلام الفرنسي، الوطنيون ليسوا سوى حفنة من المثقفين الساخطين، بضعة رشاشات تكفي لضبط رعاع الضواحي الفاسدين (أي مدن القصدير).

كان يؤيد الكلاوي تأييداً تاماً وذلك بفعل التضامن العشائري تحديداً، فهو من أبناء الجنوب. ثم أن الكلاوي وإن كان قواداً، فهو على الأقل صاحب هيبة بعكس السلطان الذي كان يسخر من جبنه الفرنسيون. ساهم أوفقير مستخدماً عملاءه بحملة التحريض لعزل السلطان، فقام بإحصاء الباشوات والزعماء الذين يمكن الاعتماد عليهم وبدراسة لوسائل الضغط الضرورية لجعل المعاندين يغيرون مواقفهم. قام بمهمته هذه بسرية تامة، في مكتبه داخل المقر وعبر الطرق الخفية لأجهزة المخابرات. لم يظهر اسمه بتاتاً في أي نشاط علني، كان قد اكتسب خبرة عظيمة، من خمسة وعشرين باشا، بقي أربعة فقط على إخلاصهم لمحمد بن يوسف، ومن ثلاث مئة وعشرين قائد، بقي ستة فقط.

مع تغير موقف فرنسا، تغير أوفقير أيضاً، فأصبح لا بد من سحب السلطان الدمية وترك المكان لسيدي محمد. لم يكن السلطان العجوز والبائس متعلقاً بالعرش أبداً وكل ما كان يهمه هو العودة إلى دراساته اللاهوتية العزيزة على قلبه، لكن حاجبه، رجل الكلاوي والمرتبط بالأوساط الفرنسية المتطرفة، كان يضع حراسة مشددة حوله يستحيل اختراقها. وحسب رواية شائعة في كل مكان فإن أوفقير هو الذي توصل إلى تنحية العجوز عن العرش. دخل إلى القصر مختبئاً في صندوق سيارة ثم تمكن من إبعاد رجال الحرس الأسود تحت تهديد السلاح حسب إحدى الروايات وبالرشوة حسب الروايات الأخرى. إن الجنرال بوايي دي لاتور Boyer de la Tour المندوب السامي والمسؤول السابق لأوفقير في الهند الصينية، هو الذي نقل هذه الرواية المختلقة. لكنه كان قد استقال في حينها ولم يعد يسيطر على الأوضاع المتبدلة.

أوفقير، المعاون العسكري دائماً وأبداً، ولكن هذه المرة للسلطان المنصور. المستقبل بلون السماء.

لم تتخل المجموعات الجبلية والخلايا المدينية عن سلاحها بعد عودة السلطان. بدأت المفاوضات مع فرنسا لتوضيح المحتوى الباطني للشعار الذي أخرجه إدغار فور Edgar Faure الساحر من قبعته وكان حينها رئيس المجلس: «الاستقلال في التبعية المتبادلة». تابع عناصر المقاومة، نضالهم للتأثير على المفاوضات. وبعد الاستقلال، في 2 مارس 1956، رأوا صفوفهم تتضخم بآلاف «القوم»، أعداء الأمس اللذين اختاروا المقاومة فجاؤوا بأسلحتهم وأمتعتهم بعد أن حرموا من رؤسائهم الفرنسيين. في المدن، اختارت بعض المجموعات المقاتلة طريق اللصوصية دون تحفظ. كما في كل مكان، لم تكن المقاومة المغربية بعد خروجها من المعركة مجموعة

متجانسة وبسيطة التركيب.

بماذا كان يطالب المقاومون الحقيقيون؟ كانوا مخلصين للعرش إنما يرغبون بإصلاحات عميقة. بالنسبة لبعضهم، وهم المتضامنون مع الثورة الجزائرية، لا ينتهي النضال عند تحرير المغرب بكامل ترابه ولا بد من متابعة القتال إلى جانب الأخوة الجزائريين. وبالنسبة للجميع، لا ينتهي النضال من أجل الاستقلال إلا بعد أن تتحرر آخر بقعة من المغرب من النير الأجنبي. ولكن، كما يقول الحسن الثاني بحق «إن مشكلة المغرب هي في كونه خضع لبلدين استعماريين في نفس الآن». انسحبت فرنسا، لكن إسبانيا احتفظت ببعض المواقع –سبتة ومليلية في الشمال، ايغني وطرفايا في الجنوب– وخاصة في الصحراء الغربية التي كانوا يدعونها ريو دي أورو Rio de Oro.

لم يكن حزب الاستقلال، الغائب عن ساحة النضال المسلح بسبب سجن أو نفي قياداته، قادراً على احتواء المقاومة رغم أن عدداً من أعضائه برز فيها بشكل فردي، أما في المجلس الوطني لهذه المقاومة المكون من خمسين عضواً، فكانت اللجنة التنفيذية للاستقلال ممثلة بعضو واحد هو علال الفاسي، القائد المحبوب والذي قضى معظم سنين شبابه في المنفى، كان يؤيد المقاومة بشكل واضح وصريح، وكان يتماثل فيها أما العناصر البورجوازية الصغيرة والمتوسطة التي تشكل القسم الأكبر من أعضاء حزبه، فكانت تتعامل بقلق مع تلك الزمر الشاذة التي تجوب البلاد.

لم يكن بإمكان السلطان الأعزل من كل قوة، غض النظر عن وجودها دون أن يخاطر بسلطته. لذا سوف تتمكن عمليات التجنيد في القوات المسلحة الملكية والتوظيف والاغتيال من تصفية حركة المقاومة بعد بضع سنوات. أنشئت في 14 مايو 1956 القوات الملكية المسلحة FAR. كان يسمى ضابطاً كل قائد قدم الطاعة مع مئة من مؤيديه على الأقل، وتدمج مجموعته بالقوات الملكية. هكذا انضم عشرة آلاف رجل دفعة واحدة ووافق الكثيرون غيرهم على تسليم أسلحتهم في الأشهر التالية. في المدن، عرض على عناصر المقاومة وظائف في الشرطة وأجهزة الأمن وعرضت أيضاً امتيازات اقتصادية على كل اللذين يوافقون على الانضمام. بسبب هذه الامتيازات قامت الأحزاب، وعلى رأسها حزب الاستقلال، بالتعتيم على النواة التي قاتلت بالفعل أيام الاحتلال عبر المتاجرة ببطاقات الانتماء للمقاومة. مما أدى في نهاية هذا اللولب المتضخم باستمرار إلى وصول عدد «عناصر المقاومة» إلى رقم ستين ألف المبالغ فيه كثيراً. لكن ذلك من خصائص كل البلدان وفي كل الأزمنة. أما الذين رفضوا الانضمام، فقد تم اغتيالهم دون تردد.

بينما كانت تدور حرب الاستنزاف هذه ضد بقايا المقاومة بشراكة رسمية بين العرش وحزب الاستقلال، كانت معركة أخرى على جبهة مختلفة تضعهما الواحد في مواجهة الآخر وذلك في سبيل السيطرة على الحكم.

كان قادة الاستقلال ينوون جعل الحكم ملكية دستورية ذات صلاحيات محدودة، لكنهم بعد أن لعبوا طويلاً ورقة محمد بن يوسف ضد فرنسا وجسدوا فيه المطالب الوطنية وبعد أن ركزوا جهودهم طوال عامين على المطالبة بعودته من المنفى وجعلوا منه رمزاً للاستقلال، أوقعوا أنفسهم في الفخ، وأصبحوا مضطرين للتعامل معه. أما هو، فصار عليه، لكي يحكم باطمئنان، أن يحاول إضعاف حزب الاستقلال المسيطر على الساحة السياسية. من أجل الوصول إلى هدفه، لم يتردد السلطان في إقامة تحالفات مع الإقطاعيين الكبار الذين قاموا بعزله في الماضي. بهذه الطريقة يكون كل طرف قد حصل على ما يبتغيه، يحصل الباشوات والزعماء على العفو عنهم والسلطان على الدعم المطلوب. تشكلت أول حكومة برئاسة السي البكاي وهو ضابط قديم في الجيش الفرنسي، معاق في الحرب وأحد الباشوات القلائل الذين عارضوا عزل السلطان. وجد حزب الاستقلال نفسه داخل هذه الحكومة في موقع الأقلية مع شخصيات دون انتماء سياسي محدد ومع ستة وزراء عن حزب الاستقلال الديموقراطي. كان اختيار السلطان قد وقع على هذا الحزب، رغم أنه أقل شعبية من شريكه حزب الاستقلال ورغم أن في قيادته عناصر جمهورية معروفة، لأنه اعتبر ذلك أهون عليه بكثير من أن يجد نفسه وحيداً في مواجهة حزب الاستقلال. لقد تم فيما بعد، سنة 1958، تشكيل حكومة استقلالية ذلك بعد أن عظمت قوة السلطان وحصل لنفسه على امتياز تعيين الوزراء في الحقائب الأكثر أهمية أي الدفاع والداخلية. ثم أنه بتشكيله حكومة من يسار حزب الاستقلال جعلها تتحمل مسؤولية قمع المعارضة في الريف التي كان القصر قد حركها ضده في الأصل...

كانت خطة القصر ايجاد حزب ريفي قادر على مواجهة حزب الاستقلال فالأرض خصبة لفكرة كهذه. ذلك أن البلاد كانت تنظر بريبة إلى حزب ولد وكبر في أوساط البورجوازية المدينية، عدوتها التقليدية، هو حزب الفاسيين، سكان فاس، المحسودين على ثرواتهم والمكروهين لعجرفتهم: إنهم أهل «المخزن» منذ الأزل. إضافة إلى ذلك، كان حزب الاستقلال يغيظ بغطرسته، بادعائه احتكار الوطنية وتذكيره الدائم باستحقاقاته اللامعة. ثم أن طموحاته التسلطية كانت واضحة، قام بفتح مكاتب لحسابه في كل مكان مهمتها الدعاية المكثفة له وتصفية منافسيه، لم يتردد عناصره أبداً في استخدام أية وسيلة لهذا الغرض. ومن جهتها، كانت بلاد السيبة سابقاً تتعامل معه كما لو أنها في مواجهة المخزن.

أنشئت الحركة الشعبية من قبل المحجوب أحرضان AHARDAN والدكتور خطيب، القائد التاريخي للمقاومة، تحت شعار «نحن لم نقاتل من أجل الاستقلال لكي نفقد حريتنا». وبتحريض من القصر، جرى إغلاق بضعة مكاتب للاستقلال والتعرض للعديد من ممثليه.

ثم جرت حادثة غير متوقعة أوشكت أن تشعل البلاد. كان أحد المقاومين الأوائل، عباس المسادي، قد اغتيل على يد حزب الاستقلال ودفن في فاس، فأراد أصحابه نقل رفاته إلى بلدته عجير Adjir، معقل المقاومة في الجبل. رفض موظفو الاستقلال إعطاءهم الإذن. في 2 أوكتوبر 1958، قام الدكتور الخطيب وأحرضان،

رغم المنع وبمناسبة مرور ثلاث سنوات على إعلان الانتفاضة، بنقل رفاة المسادي وأقاموا له جنازة باعتباره شهيداً سقط تحت ضربات حزب الاستقلال، حضرها آلاف المواطنين. تحول الاحتفال إلى تظاهرة وأطلقت الشرطة الرصاص ودخل الريف مرة أخرى في حالة العصيان.

في 9 جانفي 1958، وصل الأمير مولاي حسن، الحسن الثاني مستقبلاً، إلى تطوان يرافقه القومندان أوفقير.

كان الحسن في تلك الأيام يستطيع أن يطلق على أفقير بحق، الصفة التي أنعم بها فيما بعد على فاليري جيسكار ديستان رئيس الجمهورية الفرنسي قائلاً عنه: «صديقي». ولكن بعد ذلك بفترة طويلة وأثناء مقابلة شهيرة، قال عنه بعد أن كان قد قضى عليه: «عرفت أوفقير بثلاثة وجوه، الأول عندما كنت ولياً للعهد وكان المعاون العسكري لوالدي، الملك محمد الخامس. وكان في حينها ضابطاً سعيداً لسببين أولهما أنه نجا من كل الحملات العسكرية التي شارك فيها دون أن يترك فيها رأسه، وثانيهما لأنه وجد نفسه قد اختير من بين جميع الضباط المغاربة، كمعاون عسكري لأبي. منذ عدة أيام يدور في رأسي تساؤل هو: إذ يبدو واضحاً أن المقر قدم لنا أوفقير على طبق. في 16 نوفمبر 1955، يوم عودة أبي إلى الرباط، كان جالساً إلى جانبه في الديلاهاي السوداء. لذا بدأت أتساءل منذ ثلاثة أيام فقط لماذا قدم لنا بهذا الشكل منذ البداية؟ ثم أننا بعد ذلك قضينا سوية، هو الضابط الشاب وأنا الأعزب، سنوات ممتعة».

ما كان ينتظرهما في الريف يصعب وصفه بالممتع! لكن في الحقيقة كان الرجلان يتقاسمان بالفعل ساعات ممتعة، خاصة في الليل. كان عمر مولاي حسن تسعة وعشرون عاماً وأوفقير كان في الأربعينات من عمره. كانا يمتازان بالجرأة رغم أن الفتى لم تكن قد أتاحت له الظروف إظهارها. وحتى الفرنسيين الذين كانوا يهزؤون من ضعف السلطان الجسدي، كانوا يعترفون بأن ابنه البكر من طينة أخرى. كان كلاهما، أوفقير والحسن، ينظران إلى الدنيا نظرة الفاحش الباردة. يحبان الخمر والفتيات، كان لصداقتهما رائحة قعر الكؤوس الثقيلة والأسرة المرتادة، لكنها مع ذلك صداقة أو ربما علاقة تواطؤ؟ سوف تكون كذلك لاحقاً. السلطان ما زال شاباً في حينها سبعة وأربعون عاماً سنة 1956– ولم يكن الحسن متأكداً من أنه سيحكم يوماً أو أن ذلك اليوم سوف يأتي ربما في مستقبل غير محدد. غير أنه يستطيع أن يحكم بوجود أبيه، وهذا هو الهدف الذي كان يسعى إليه تحديداً، فقد تربى على هذا الأساس. منذ 1944 –وكان عمره أربعة عشر عاماً– حضر مقابلتين بين والده وروزفلت، لأن محمد بن يوسف الذي كان يعي حدوده أراد لابنه البكر تربية تفتح له أبواب العالم العصري الذي كان هو نفسه لا يعرف عنه إلا القليل. حصل مولاي حسن على إجازة في الحقوق ودبلوم الدراسات العليا في الحقوق المدنية من جامعة بوردو، لحق بوالده في المنفى وبينما كان السلطان المخلوع واقعاً تحت وطأة التشاؤم، كان الحسن، على العكس، يعتبر أن اللعبة لم تنته بعد. في أثناء المباحثات مع فرنسا وإسبانيا رضخ لقرار أبيه الذي يكن له

عاطفة قوية لكنه كان نافذ الصبر لكي يثبت وجوده ويتحرك.

كان الحسن يجهل نبوءة موظف فرنسي كبير قال حين رأى أوفقير يشق لنفسه طريقاً في قلب العائلة الحاكمة: «هذا رجل سوف يتمكن من هزم سلطان...»

عين الأمير مولاي حسن، بحسب التقاليد العلوية، على رأس قوات الجيش الملكي (FAR)، وبإشراف أوفقير المجرب، أخذ دروساً في القيادة.

كان القمع في الريف عنيفاً وبدون رحمة على الطريقة الأوفقيرية. تم إنزال عشرين ألف رجل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. قسموا إلى ثلاثة طوابير أرسلت باتجاه الجبل. قام الطيران الذي كان طاقمه القيادي فرنسياً وألوانه، المصبوغة حديثاً شريفية، بسحق القرى تحت هول القنابل. كان أوفقير يقود الطابور الرئيسي والحسن يتابع العمليات في الهيلوكوبتر، حاطاً على اليابسة من حين إلى آخر لتقبل مراسيم الطاعة. في هذه الحملة، أضفت الى الأسطورة الأوفقيرية السوداء بضعة روايات. منها أنه في أحد الأيام كانت مجموعة من الأسرى الذين قدموا إلى الحسن، قد ركعوا أمامه، وحين وقفوا بعد أن حصلوا على العفو عنهم وابتعدوا قليلاً وقع انفجار بينهم أدى إلى تمزيقهم إرباً؛ لقد كان أوفقير قد وضع مازحاً، قنبلة مفتوحة في طاقية جلابية أحد الأسرى. وفي مرة أخرى قام أحد الريفيين بإطلاق الرصاص على الحسن لكنه أخطأه فتم اعتقاله. اقترب منه أوفقير وذبحه قائلاً للحسن: «هدية لك يا أميري!». هل هي روايات غير محققة؟ بالتأكيد، لكن من المعروف أن أوفقير منذ أن كان يعمل لحساب فرنسا –وأيضاً في وادي الزم في غشت 1955– كان يحب القيام بهذا النوع الفظيع من الإعدامات العلنية حيث يحافظ الخنجر على مكان الصدارة لديه.

بقيت حصيلة القمع غير معروفة بالتحديد لكنها قدرت بعدة آلاف من القتلى والجرحى، كان الضحايا بمعظمهم من المدنيين الذين وقعوا تحت قنابل الطيران. وفي ختام الحملة التي قام بها أوفقير بهمة بالغة ضد مواطنيه، رفع إلى رتبة كولونيل.

في 15 غشت 1957 توج محمد بن يوسف نفسه ملكاً باسم محمد الخامس.

دارت أحداث آخر حلقة في مسلسل تصفية المقاومة في مناطق الجنوب. كان جيش تحرير الجنوب الذي يضم في صفوفه عدداً كبيراً من المتمردين القادمين من مختلف مناطق المغرب، يقاتل إلى جانب القبائل الصحراوية ضد فرق فرانكو، وكانت عملياتهم تطال أيضاً موريطانيا الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي وعلى عتبة استقلالها.

كان الملك في وضع حساس للغاية إذ لم يكن باستطاعته أن يتنصل بسهولة من المقاتلين: المغرب بكامله –بأحزابه ومن ضمنهم الحزب الشيوعي، بنقاباته وجمعياته– كان يعتبر الصحراء الغربية وموريطانيا جزءاً لا يتجزأ من أراضيه وكان علال الفاسي، زعيم حزب الاستقلال، يردد في خطاباته الحماسية أن حدود المغرب الجنوبية لا يمكن أن تكون إلا على نهر السنغال. كيف يمكن للملك من جهة أخرى أن يسمح بوجود هذه القوة المسلحة التي لم تغرها محاولات الاحتواء في القوات الملكية والتي تترافق حوافز النضال من أجل التراب لديها بطموحات سياسية واضحة.

أقنعت فرنسا الملك محمد الخامس بتجاوز تلك العقبة بشجاعة. ليست موريطانيا أكثر اهمية من الصحراء الغربية، ذلك الركام من الرمال الذي تخلى عنه الإنكليز فيما مضى للديك الغولي، الفرنسي، يلعب فيه على هواه. أما الحقيقة فهي أن باطن الأرض في هذه المناطق يفيض بالفوسفات ومناجم الحديد. وضعت إحدى الشركات العالمية، التي يمتلك جزءاً منها مصرف باريس وهولاندا، برنامجاً لاستغلال أحد الأحواض المنجمية في الزويرات، من ضمنه بناء سكة حديد تصل حتى الساحل الأطلنطيكي وتحديث تجهيزات بور اتيان Port-Etienne (وهو مرفأ نواريبو بعد الاستقلال) بهدف نقل المعادن المستخرجة من المنجم. ومن أجل تنفيذ هذا البرنامج طلب من البيرد (البنك الدولي للبحوث والإنماء) (BIRD) قرض فتمنع عن تقديمه لخوفه من الفوضى الأمنية السائدة في المنطقة مشترطاً تثبيت الأمن في موريطانيا للقبول بتأمين الرساميل اللازمة، مما يتطلب بالتأكيد إخضاع جيش التحرير. كانت فرنسا، المتورطة في حرب الجزائر تعتبر أن هذه العملية ستؤدي لها خدمة إضافية ألا وهي تخليص حدودها الصحراوية من بضعة آلاف رجل يؤيدون القضية الجزائرية.

في يناير 1958، وضع الفرنسيون والإسبان، بالاتفاق الكامل مع السلطات المغربية خطة لعملية اوراغان (Ouragan) التي يدعى الجزء الفرنسي منها ايكوفيون (Ecouvillon). في الشهر اللاحق، قام خمسة عشر ألف رجل مدعمين بحوالي مئة طائرة، بتمشيط الصحراء، مما اضطر القبائل الصحراوية وقد قضي على ماشيتها، للهجرة. ومما جعل المقاتلين وقد سحقوا يستسلمون وينضمون إلى القوات الملكية بمعظمهم أو يعودون إلى مناطقهم.

من جهة أخرى، استمر القادة المغاربة وعلى رأسهم السلطان بالمطالبة عالياً «بالأراضي الصحراوية كامتداد للمغرب». كما رفضوا طويلاً الاعتراف بموريطانيا المستقلة. لكن ذلك لم يمنع الأمن الاقتصادي الاستعماري ان يستتب وأن تواجه موريطانيا مصيرها بمعزل عن المغرب، وأن تبقى إسبانيا طويلاً في ريو دي أورو.

سوف يعاد فتح هذا الملف بعد ستة عشر عاماً.

كان من بين الناجين من عملية «ايكوفيون» القلة والمصرين على متابعة النضال، أحمد اكوليز، وهو طباخ

سابق في المطاعم المدرسية. كان أول من أنشأ في الدار البيضاء خلية سرية استطاعت الشرطة الفرنسية إلقاء القبض عليه ثم تمكن من الهرب. هذا الرجل أصبح لقبه أسطورياً في مدن القصدير في المغرب إنه شيخ العرب.❑